

التناص الديني عند الشاعر يوسف حسن نوفل

سهير فرغلي السيد أحمد (*)

مقدمة:

يتناول هذا البحث التناص الديني عند الشاعر يوسف نوفل متضمناً اقتباس الألفاظ القرآنية، واقتباس المعاني القرآنية، ثم اقتباس القصص القرآني . وقد جاء التناص بمعانٍ متعددة في المعاجم اللغوية القديمة ، ولكن المعاجم الحديثة تُعدُّ الأقرب في ذكر المعنى المستخدم الآن للتناص ، وقد جاء في المعجم الوسيط " تناص القوم أي ازدحموا " (١) ، وهذا المعنى قريب من المعنى العام للتناص المتضمن تداخل النصوص وتلاقيها في نص واحد .

ويعد التناص ظاهرة فنية لها حضورها الواسع ، وقوتها الفاعلة في تشكيل الفضاء الدلالي والجمالي للنص الشعري بوجه عام ، وعند الشاعر يوسف نوفل بوجه خاص ، وقبل التعمق في هذا الموضوع ، لا بد من إلقاء الضوء على التناص كظاهرة نقدية حديثة في الساحة النقدية العربية ، والتناص له ما يشبهه في الثقافة العربية ؛ فقد ظهرت مصطلحات كثيرة في الحقل البلاغي العربي القديم تشير إلى التناص مثل التضمن ، الاقتباس ، الإشارة ، التلميح الخ .

التنويه عن المصطلح :

التناص من الموضوعات التي شغلت الساحة النقدية ، "ولد مصطلح (التناص) على يد جوليا كريستيفا عام ١٩٦٩م التي استنبطته من باختين في دراستها لدستوفسكي ، حيث وضع تعددية الأصوات (البوليفونية) ، والحوارية (الديلوج) دون أن يستخدم مصطلح (التناص) ، ثم احتضنته البنيوية الفرنسية

(*) هذا البحث من رسالة الدكتوراه الخاصة بالباحثة، وهي بعنوان: شعر يوسف حسن نوفل دراسة فنية، وتحت إشراف: أ.د. سهام راشد عثمان - كلية الآداب - جامعة سوهاج & د. أمينة محمد فتح الله - كلية الآداب - جامعة سوهاج.
(١) المعجم الوسيط، مادة (نصص) مصطفى إبراهيم وآخرون، مجمع اللغة العربية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت).

وما بعدها من اتجاهات سيميائية، وتفكيكية، في كتابات كريستيفا، ورولان بارت، وتودوروف، وغيرهم من رواد الحداثة النقدية، على الرغم من أن بذوره كانت أقدم من ذلك؛ إذ ساد في الماضي إحساس عام بأن دراسة أعظم الأدباء لا يمكن أن تدور في فلهم وحدهم، لأن مثل هذه الدراسة لا تكفي وحدها في تحقيق المعرفة الكاملة ذلك أن معرفة الخلف ينبغي أن ترتبط بمعرفة السلف، وأكثر المبدعين أصالة هو من كان في تكوينه رواسب من الأجيال السابقة"^(١).

ومن أشهر تعريفات التناس "ظاهرة لغوية معقدة تستعصى على الضبط والتقنين، إذ يُعتمد في تمييزها على ثقافة المتلقي، وسعة معرفته وقدرته على الترجيح"^(٢)

ولا شك أن هذا ليس هو التعريف الوحيد للتناس، وذلك لكونه "صار معروفاً ومتداولاً من خلال الدراسات النقدية المعاصرة الكثيرة، التي تناولته في هذه الزاوية أو تلك"^(٣)، ولهذا فقد تعددت تعريفات الدارسين والنقاد للتناس والجميع "ماعدًا بعض الاتجاهات المثالية - يتفقون على أن التناس شيء لامناس منه، لأنه لا فكاك للإنسان من شروطه الزمانية والمكانية ومحتوياتها، وهذه المعرفة هي ركيذة تأويل النص من قبل المتلقي أيضاً"^(٤)

"ومن هؤلاء النقاد الذين أكدوا حضور التناس كظاهرة حتمية، الدكتور "عبد السلام عبد الخالق الزبيدي"؛ يقول: "وللنص علاقة مع غيره من النصوص تجعله مزدحمًا بالأصوات، ومرصوفًا بطبقات من المكونات الخطابية الراسبة في صلبه، بحيث تتحقق فيه خاصية التناس التي تحقق

(٢) محمد عزام، النص الغائب (تجليات التناس في الشعر العربي)، دراسة منشورات اتحاد الكتاب العرب ص ٢٨، ٢٩.

(٢) د محمد مفتاح إستراتيجية التناس وتحليل الخطاب الشعري، الدار البيضاء، ط ٣، ١٩٩٢م، ص

(٣) د خليل الموسى، قراءة في الشعر العربي الحديث والمعاصر، منشورات اتحاد الكتاب العرب ٢٠٠٠م، ص ٦٥.

(٤) د. محمد مفتاح، إستراتيجية التناس، مرجع سابق، ص ١٢٣.

شعريته ؛ فهو ليس نبتاً شيطانياً فريداً ، بل ملتقى لتصالب نصوص مختلفة تحقق له التكون الطبيعي وفقاً لدرجته في سلم الإبداع " (١)

ويمكن القول بأن جل التعريفات والمفاهيم ، التي وضعت للتناس - فيما أمكن الاطلاع عليه وتتبعه في هذا الموضوع - يدور حول تلك التعالقات المتنامية على نحو ملموس أو خفي لنصوص مجلوبة أو متسربة في اللا وعى تحل في نص حاضر، وتمنحه من حمولاتها ، التي يمتصها ، أو يتقاطع معها أو يتجاوزها، عبر خبرة حاضرة وتفاعل مستمر، يمنح النص إنتاجية عالية ، يدفع به إلى مناطق رؤيوية جديدة وخصبة، تحوز على قيمتها وعمقها من المجلوب ، إذ يصبح مجدولاً في نسيج النص على نحو محكم وسلس.

وهذا هو الذوبان أو التلاحم الذي يحدث، فليس هناك استقلالية للنص الذي استطاع أن يجر معه انساقاً شتى في لغته ومفرداته أو غباراً من التاريخ الإبداعي (٢) .

ويكاد يجزم جميع الباحثين والنقاد بأن "كل ما يكتب من نصوص لها شفرات وأصول قديمة بعضها يدرك ، وبعضها شفرات منسية لا ندركها وان كنا لا نستطيع أن ننفي وجودها" (٣).

وعندما ندرس تلك الظواهر ، لا يعيننا الاستدعاء في ذاته ، "وإنما مراقبة العملية النفسية لحظة الإبداع ، فالشاعر يبدأ حركته في تشكيل القصيدة شعورياً أو إيقاعياً أو فكرياً ، فإذا صنع ما يمكن أن يكون نواة تجربة، فإنه يسعى نحو تنميتها ونحتها وإكسابها شكلاً ، من ثم يكون سعيه نحو التراث ليستعير منه ما يعينه في تحقيق مهمته" (٤).

ويدعم الرأي السابق الدكتور "أحمد مجاهد" بشكل أكثر موضوعية بقوله : "ليس النص الأدبي كياناً قائماً في فراغ ، وإنما يتصل بمنشئ حاول البعض جعل النص بصمة له ، وحاول بعض آخر عزله عنه وإعطاءه حياة مستقلة ،

(١) د. عبد السلام عبد الخالق الزبيدي ، النص الغائب في القصيدة العربية المعاصرة ، دار غيداء للنشر ، ط١ ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م ، ص ٢٨.

(٢) د. سعاد العبد الوهاب العبد الرحمن، مستويات المرجعية وتجلياتها التراثية - حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية - رسالة ١٩٨ ، رسالة ٢٣ ، ٢٠٠٢ م ، ص ٤٤.

(٣) د. محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، لونجمان، ط١ ، ١٩٩٤ م.

(٤) فاروق عبد الحكيم درباله، التناس الواعي شكوله وإشكالياته، مجلة فصول، عدد ٤٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٤ م، ص ٣٠٧.

كما إن النص يتصل من جانب آخر بمتلق حاول المنشئ أن يجذبه إلى تجربته الخاصة ليعايشها " (١).

وقريب من هذا الموقف قول الدكتور "على عشري زايد"، الذي يرى أن التناسل يعكس الانتقال بعلاقة الشاعر بموروثه من مرحلة التعبير عن الموروث إلى مرحلة التعبير به، كما أشار لأهمية التناسل كوسيلة يستطيع الشاعر من خلالها، وصل تجربته بمعين لا ينضب من القدرة على الإيحاء والتأثير، وذلك لأن المعطيات التراثية تكسب لونا خاصاً من القداسة في نفوس الأمة، ونوعاً من اللصوق بوجودها، لما للتراث من حضور حي ودائم في وجدان الأمة.

والشاعر حين يتوسل إلى الوصول إلى وجدان أمته بطريق توظيفه لبعض مقومات تراثها يكون قد توسل إليه بأقوى الوسائل تأثيراً عليه " (٢).

ولهذا، فإن ظواهر التناسل "ليست مجرد مفردات ثقافية أو أدبية فواء، كل كلمة أو مصطلح أو اسم علم حشد من المعارف التراثية، التي تم السعي إليها في سياق محدد، لتؤدي وظيفة بنائية في إقامة القصيدة، وتوجيه مضمونها إلى غاية شغلت الشاعر بدرجة ما جزئية أو شاملة، تعبر عنه وعن خصوصية تجربته أو الهدف الذي يرمى إليه" (٣).

فلا شك أن "التناسل يشكل أسلوباً شعرياً فاعلاً في بناء النص، خاصة إذا استثمر الشاعر هذه الطاقة الكامنة، واستطاع إدماجها فيه بحيث تغدو من لحمته، وتعبّر عن رؤيته وتفصح عن موقفه" (٤).

ويبقى التناسل "دليلاً على طموح الشاعر إلى تثقيف ذاته، وإغناء شعره، وتحريك ذهن المتلقي إلى دائرة أكثر اتساعاً عن معاني مفردات القصيدة، أو مكوناتها حين تنحصر في دائرة عصر الشاعر، فلا تحمل علامات الامتداد، والانتماء إلى ثقافة تراثية مترابطة الطبقات والاتجاهات" (٥).

(١) د. أحمد مجاهد، مغامرات القصيدة المعاصرة، ط١، ٢٠٠١م، ص ١٥٧.
(٢) د. على عشري زايد، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م، ص ١٦، ٢٤.

(٣) ا.د. سعاد العبد الوهاب العبد الرحمن، المرجع السابق، ص ٤٤.
(٤) د عبد الباسط الذبيد، المتوقع واللامتوقع في شعر محمود درويش، دراسة - مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، ج ١٨، ٣٧٤، جمادى الثاني ١٤٣٧هـ، ص ٤٣٦.

(٥) ا.د. سعاد العبد الوهاب العبد الرحمن، مرجع سابق، ص ٥٠.

ويظل الهدف الأساس من الدراسة ، هو التركيز على فنية النص ودور التناس ، من حيث إنه يعكس الجانب الوجداني للمبدع ، و يكشف عن مكنون شخصيته، وموروثه اللغوي والفني والأدبي ، كما يعكس اتجاهاته وآراءه الاجتماعية والسياسية ، وقد تميزت إبداعات الشاعر يوسف نوفل بالعمق والبعد عن المباشرة ، بل والتعبير بالرمز في أحيان كثيرة ، ولا شك أن ذلك دليل على رقي التجربة الشعرية عند الشاعر.

ولتحقيق الهدف المأمول من الدراسة ، كان لزاماً على الباحثة أن تحاول جاهدة ، الغوص في أعماق تلك التجارب محاولةً استخراج مكنوناتها وعلاقتها ، بالتناس مستخدمة في ذلك التأويل ، الذي بعدُ عند الباحثين " جهداً لغوياً وفكرياً وثقافياً يقوم به المفكرون ونقاد الآثار الفنية، ليعطوا النصوص، التي بين أيديهم معاني لا تقدمها من الوهلة الأولى.

ومن هنا فالتأويل يستدعي إصغاءً كثيرًا لما يقوله النص في ظاهره ، وصولاً إلى معرفة ما يقوله في باطنه إنه رحلة قارئ النص من المباشر إلى غير المباشر، ومن السطح إلى الأعماق، ومن المثبت إلى المحذوف ومن الحاضر إلى الغائب" (١)

أنواع التناس في شعر يوسف نوفل :

عندما نتناول أعمال الشاعر يوسف نوفل ، نرى بوضوح " مسلسل التناس الذي توالى حلقاته في فردانية منقطعة النظير تنأى بصاحبها عن التقليد والتكرار ، فجاء التناس بكل صورته موظفاً وصادقاً وله مهمته التي وظف من أجلها ، وقد نجح الشاعر في توظيف التناس بكل صورته وبعد به عن الإلصاق والمباشرة والزخرفة اللفظية " (٢)

ومن أنواع التناس عند الشاعر التناس الديني الذي عدّه الدكتور محمد عبد المطلب أهم نوع من أنواع التناس عند الشاعر حين قال : " في

(١) د. عادل الفريجات، تأويل النص الشعري بين التراث والمعاصرة، مجلة الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد ٣٩٨، ٢٠٠٤م، ص ٣١.

(٢) د محمد عبد المطلب ، الأستاذ الدكتور يوسف نوفل دراسات وشهادات، قصر ثقافة حلوان، ٢٠٠٩م، ص ٤١.

مقدمة التناص الذي لجأ إليه شاعرنا الاقتباس القرآني حيث ينساب في قصائد الديوان كما تنساب العصارة الخضراء في النبات فتلونه باللون الأخضر" (١)

أولاً: التناص الديني :

يعد التناص الديني أحد أهم عوامل التأثير ، التي يلجأ إليها الشعراء لإكساب التجربة القوة والتأثير كما أفرد له الباحثون الكثير والكثير من الأبحاث والدراسات العلمية ، وقد عرفه الدكتور أحمد الزغبي قائلًا: " ونعنى بالتناص الديني تداخل نصوص مختارة عن طريق الاقتباس ، أو التضمن من القرآن الكريم أو الحديث الشريف أو الخطب أو الأخبار الدينية مع النص الأصلي" (٢) ولعل الاقتباس القرآني من أهم أسرار جمال وروعة التعبير عن التجربة الشعرية عند الشاعر، حيث إنه "يمنح النص ثراءً وغنىً ويسهم في النأي به عن حدود المباشرة والخطابة" (٣)

ذلك لأن "النص القرآني قيمة جمالية منذ بداية نزوله ، خاصة وإنه تحدى البشر في أن يأتوا بمثله ، وقد جاء هذا النص حاملاً لأبعاد دينية عقائدية ، وفي الوقت ذاته متضمناً قيمة جمالية لغوية ، تؤكد الإعجاز ، فاجأت العرب لأنها من جنس لغتهم ، وفي الوقت ذاته اخترقت هذه اللغة بنمط جديد يحقق الإعجاز ، وقد كانت هذه المفارقة حافزاً قوياً لأن يقترب من هذا النص المخاطبون به، حتى يمكن لهم الوقوف على حقيقته الإعجازية الجمالية" (٤)

" فمن لم يكن حافظاً للقرآن عارفاً بقصصه فن يستطيع أن يتبين ذلك أو أن يلمح ذلك التأثير والاستلهام، وليست الغاية من الاستلهام إحصاء شواهد وأمثلة من هنا وهناك؛ وإنما (النص/الحالة) هي التي تقتضى استدعاء نص مقدس ، أو غير مقدس" (٥)

(١) د محمد عبد المطلب ، الأستاذ الدكتور يوسف نوفل دراسات وشهادات، ص ١٤١.
(٢) د. أحمد الزغبي، التناص نظرياً وتطبيقياً، عمون للنشر، الأردن ، ٢٠٠٠م، ص ٣٧.
(٣) ناصر جمال شبانة، التناص القرآني في الشعر العماني الحديث، مجلة جامعة النجاح للأبحاث والعلوم الإنسانية، المجلد ٢١، ٢٠٠٧م، ص ١٠٨٠.
(٤) د محمد تحريشي ، النقد والإعجاز القرآني ، دراسة منشورات اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠٤م، ص ٧.
(٥) أ.د عباس طالب زادة ، التناص القرآني في شعر يحيى السماوي، جريدة نور العراق،مجلد ٢١ ص ١٧.

وفي الصفحات التالية سنحاول تسليط الضوء على ملكات شاعرنا في النهل من هذا النبع الغني .

أولاً : اقتباس اللفظ القرآني :

كان لثقافة الشاعر يوسف نوفل الدينية ، بحكم دراسته الدينية في مقتبل حياته أثر كبير في انتشار الألفاظ والمعاني القرآنية ، كظاهرة أسلوبية واضحة في معظم دواوينه الشعرية ، إن لم يكن جميعها ، ولكن بدرجات متفاوتة ، ويبدو الديوان الأحدث للشاعر والذي يحمل عنوان " برديات أبي الهول" أكثرها اقتباساً من القرآن لفظاً ومعنى ولا شك "إن تداخل المفردة القرآنية في نسيج النص الشعري ، ليس مجرد تداع ذهني منفصم عن سياق النص ، بل توظيفاً موفقاً رحب الدلالة (٣).

هذا ما سنراه عندما نتناول شواهد الاقتباس اللفظي عند الشاعر؛ ومنها قوله مقتبساً اللفظ القرآني (غيض) :

" قطع وريد السلم وغيض الماء وغيض النهر وغيض

الفجر وغيض الحلم" (١)

وفي هذا الاقتباس نلاحظ أنه يوظف اللفظ توظيفاً خاصاً ، يتناسب مع مقصوده ، ويعبر عن تجربته الخاصة ؛ إن لفظ غيض مقتبس من قوله تعالى:

(وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) (هود آية ٤٤)

ولا شك أن هذا اللفظ عندما يذكره الشاعر ، يثير في ذهن المتلقي كل ما يرتبط باللفظ من معان؛ إنه يرمز إلى عودة الحياة والنماء إلى الأرض بعد انحسار الماء ، وانتهاء الطوفان المدمر الذي حدث في عهد سيدنا نوح عليه السلام

وقد وظف الشاعر هذا الاقتباس توظيفاً مغايراً عندما استخدم اللفظ (غيض) مكرراً مع (الماء والنهر والفجر والحلم) ، بحيث يثير في ذهن المتلقي نقيض ما يثيره اللفظ في السياق القرآني ، ليقترب من النص محاولاً فهمه.

(١) د. يوسف حسن نوفل، ديوان شلالات الضوء، الأعمال الكاملة، مصدر سابق ، ص ٣٠٢

ولا شك أن التكرار أسهم في إبراز الإحساس الحاد بالألم عند الشاعر ، بسبب حزنه لضياح كثير من المعاني الإنسانية الجميلة وهذا ما نلاحظه في قوله : (قطع وريد السلم).

ومن المؤكد أن التناقض بين المعاني المرتبطة باللفظ في سياقه القرآني وسياقه الشعري ، قد أسهم في توصيل إحساس الشاعر ونقل تجربته إلى المتلقي ، بأسلوب واضح ، بعيداً عن المباشرة والتعقيد ، مستغلاً ما للتناص من قدرة على " صنع صدمة في الإيقاع ، أو مفارقة في المعنى ، وتوليد صراع بين النص الغائب والنص الحاضر ، بما له من شحنة انفعالية ، أو خلق جو نفسي متوتر " (١)

وفي قصيدة بعنوان (على شاطئ الكويت) يقول شاعرنا :

إيه شوقي

قف على قبر الوصايا

قف على قبر الرعايا

قف على قبر السنين

قف على الشعر الضنين

قل لشعبي لات حين

قل لشعبي لات حين(٢)

يسترفد الشاعر هنا ، قوله تعالى :

(كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مَن قَرْنٍ فَنَادَواْ وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ)

(ص آية ٣)

ويعبر الشاعر من خلال هذا الاسترفاد ، عما يجول في نفسه من أفكار ومعانٍ حول مأساة غزو العراق للكويت ؛ فاللفظ القرآني جاء معبراً عن استحالة أن يجد الكفار مفراً من عقاب الله يوم القيامة ، ويأتي توظيف الشاعر متألفاً مع هذا المعنى ، عندما يعبر عن تلك الكارثة الإنسانية . وقد نجح من خلال هذا التناص أن ينقل تجربته الخاصة عن هذا الموضوع ، ويصف للمتلقي كيف يرى هذا الجرح العربي ؛ ففي الآية

(١) د. رمضان الصباغ، في نقد الشعر العربي المعاصر، دراسة جمالية، دار الوفاء، الإسكندرية، ط١، ١٩٩٨م، ص ٢١٠.

(٢) د. يوسف نوفل، مرايا المتوسط، الأعمال الكاملة، مصدر سابق، ص ٣٥٤.

الكريمة لامنصص للكفار من عذاب الله وعقابه، وكذلك لا مناصص ، ولا مهرب للإنسان العربي من العذاب ، بعد أن اعتدى الشقيق على شقيقه ، وكان هذا الجرح قد سبب ألما نفسيا للإنسان العربي لا يوازيه إلا الهلاك والعذاب الذي لا ينتهي.

ويعبر عن المعنى نفسه فيقول :

" لكن الكابوس أبي إلا أن يكشف عن أنيابه

مثل الجمل بسم خياط " (١)

فالشاعر هنا يتنصص مع قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ) (سورة الأعراف آية ٤٠)

فالشاعر هنا ، يستخدم التنصص (جاء من سم الخياط) استخداماً مماثلاً ، فيوظفه ليعبر عن مراده ؛ فكما أن دخول الجنة بالنسبة للكفار لا يصبح ممكناً حتى ولو خرج الجمل - وهو الخيط الغليظ الخاص بالسفينة - من ثقب الإبرة ، كذلك غزو الأخ العربي لأخيه العربي له القدر نفسه من الاستحالة ، وعدم الإمكان من وجهة نظر الشاعر .

ويسترفد الشاعر الآية القرآنية الكريمة نفسها ، ليعبر عن نقده للإعلام المضلل في عصر العولمة ، فيقول في قصيدته " يا بحر" :

في سني القرن اللعوب

ضمنا الإعلام ضما

جاء من سم الخياط (٢)

ولا شك ، أن هذا التنصص فيه إشارة جلية ، تعبر عن سخط الشاعر وغضبه من هذا الإعلام المضلل ، الذي يكيل بمكيالين ، خاصة عندما يتناول قضية الصراع العربي الإسرائيلي.

ويرتفع الحس الوطني عند الشاعر لدرجة الالتحام مع هموم الوطن العربي ، فيسترفد ألفاظاً قرآنية للتعبير عما يعانیه الإنسان العربي في ظل

(١) د. يوسف حسن نوفل، البحر أنثاه البحيرة، الأعمال الكاملة، مصدر سابق، ص ١٨٣.
(٢) د. يوسف نوفل، شلالات الضوء، الأعمال الكاملة، مصدر سابق، ص ٢٤٥.

الاحتلال ؛ فيقول في قصيدته "حوار في ساحة الإعدام" على لسان المواطن العربي المقهور مصوراً معاناته :

أرجو أن أسمعكم صوتي

أن أقرنكم كتبي

أن تضعوا أيديكم مثلي فوق النار

أن تروا الموت القهار

ثم يقول في القصيدة نفسها :

أن تروا الماء الآسن ،تروا الخبز اليابس صار جماجم

تروا النمل ، القمل ، الدم وهي تهاجم (١)

إنه يسترشد قوله تعالى : (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ

وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ) (الأعراف آية ١٣٣)

والماء الآسن ؛ أي العفن متغير الطعم ، كما جاء في المعاجم العربية(٢)

ولفظ (آسن) جاء به الشاعر مثبتاً، في حين جاء في الآية الكريمة منفياً.

قال تعالى:(مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ)

(سورة محمد من الآية ١٥)

ليتناسب مع مراد الشاعر ، فقد أراد أن يعبر به عن قمة العذاب ،

فاستعاره من موقعه ليوظفه توظيفاً مخالفاً ، ليعبر به عن النقيض؛ فعندما كان

منفياً في الآية ، كان تعبيراً عن نعيم أهل الجنة ، وعندما نقله الشاعر إلى

سياقه الشعري ، وأزال عنه النفي جاء معبراً عن قمة المعاناة .

وقد نجح الشاعر في نقل تجربته من خلال هذا التناص ، الذي أسهم

في تجسيم ما يعانیه الإنسان العربي من الحزن والألم ، وما يشعر به من

مرارة الاحتلال، وفي السياق نفسه يسترشد من القرآن الكريم ألفاظاً تشير إلى

قمة البلاء .

فقد ابتلى الله سبحانه وتعالى أقواما بتلك الابتلاءات (النمل – القمل –

الدم) عقاباً لهم لكفرهم ، وهذا يسهم بشكل أكبر في تجسيم ما يعانیه

المواطن العربي في الأراضي، فالتناص في هذا السياق هدفه التقريب .

(١) د. يوسف نوفل ، شلالات الضوء، الأعمال الكاملة، مصدر سابق ، ص ٣٢٥ ، ٣٢٦.

(٢) انظر معجم العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق مهدي المخزومي وآخرون، مكتبة الهلال، ج٧، ص ٣٠.

وفى إطار الإحساس الوطني المتنامي عند الشاعر يقول في قصيدة بعنوان : "جدلية بث مباشر بفضائيات المتوسط" وفيها يحاور النسر فرخ غراب ، وأتفق مع الدكتور محمد عبد المطلب في قوله : "إن النسر في هذه القصيدة يرمز إلى ما كان عليه العرب قديماً من سؤدد وحضارة ، وإذا كان النسر يرمز إلى المجد العربي ، فالأم يرمز فرخ الغراب ؟ إنه لا يستبعد أن يكون المرموز به إليه العدو الصهيوني" (١)

وفى تلك القصيدة ، يسترفد الشاعر من القرآن لفظ "أدنى الأرض" ليديمجه في بناء تجربته، ويعبر به عن مراده بسهولة ووضوح بعيداً عن التعقيد وبطريقة غير مباشرة بعيداً عن الخطابة ، التي لا تتناسب مع لغة الشعر، يقول :

" يا ذا الأسود

أما الروم

((فبأدنى الأرض)) عناكب وعقارب وثعالب ومخالب

وقنابل وجحافل " (٢)

ويعكس هذا التناص غضب الشاعر ، وثورته لموقف الحضارة الغربية المتخاذل تجاه عدالة القضايا العربية الراهنة ، ومن أهمها القضية الفلسطينية ، فعندما يقول : (أما الروم فبأدنى الأرض) إنما يقصد الدول الغربية الكبرى ، التي عَضَّت الطرف عن الحقوق العربية المسلوبة ، ويعقد مقارنة بين هذا الموقف الحالي المتخاذل ، و موقف المسلمين تجاه الحضارة الغربية كما نقله القرآن الكريم في سورة الروم، قال تعالى :

(الْم (١) غَلَبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ) (سورة الروم الآيات ١:٤)

إنه يعتز بحضارته الإسلامية الراقية ،التي تحزن لضياح الحقوق ، بل وتفرح بعودة الحق لأهله وإن كانوا مخالفين في العقيدة ؛ فقد حزن المؤمنون

(١) د محمد عبد المطلب ، الدكتور يوسف حسن نوفل دراسات وشهادات، مرجع سابق، ص ١١٥.

(٢) د. يوسف نوفل، ديوان مرايا المتوسط، قصيدة جدلية بث مباشر بفضائيات المتوسط، ص ٢٤٨.

في عهد النبي عندما علموا بهزيمة الروم . وكانوا أهل كتاب . على يد
الفرس الوثنيين ، فبشرهم الله بأنه سينصرهم ، وسيفرح المؤمنون بنصرة
الحق .

وقد نجح الشاعر في غرس هذا التناص في موضعه المناسب ،
موظفًا وهادفًا ، بحيث يثير في ذهن المتلقي كل المعاني التي سكت عنها
الشاعر صراحةً ، ونطق بها من خلال الاقتباس تلميحًا فكان ذلك أجمل
وأصدق.

وفي قصيدته التي تحمل عنوان " يا أبا العمر" ، يأتي التناص معبرًا عن
صدق المشاعر والرغبة الصادقة في النصح الذي يعلى من قيمة العلاقات
الإنسانية السامية ومنها الصداقة، يقول :

" ومن الحب جنون مستعرٌ

يا أبا العمر أرى أفكك يبدو مكفهراً

يا أبا العمر أما من مزدجرٌ

يا أبا العمر أما أن الأوان أن تقرُّ ؟

أيعود القارب عن هدأته ، لا يفرُّ

(لا يكن حبك قاتلاً... ليس هذا منك (يا قيس بحر)) " (١)

ويبدو الشاعر هنا ، محباً لصديقه ، حريصاً على صالحه ، راغباً في ثنيه
عن عزمه على الاستمرار في اتجاه لا يرى إنه في صالحه .

وقد ظهر ذلك واضحاً من خلال استرفاد فاصلة قرآنية من سورة القمر
(مزدجر)، وقد نسج الشاعر على وزنها (مستعر ، مكفهراً) لما في سورة القمر
من الترهيب والتخويف .

إنه يسترفد قوله تعالى :

(اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (١) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ

(٢) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ (٣) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ

مُزْدَجَرٌ (٤) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرَ (٥) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ

نُكِّرٍ ((٦)) (سورة القمر الآيات ٣:٦)

(١) د. يوسف نوفل، مرايا المتوسط، الأعمال الكاملة، مصدر سابق، ص ٢٦١.

وفى التعبير عن ولعه الشديد ببورسعيد مدينته الحبيبة يقول فى قصيدته

"بورسعيد" :

أطوف فى البلاد ولا أبالى
وأسبح فى البحار بلا ملال
وأعلو ثم أهبط فى تدان
واتهم ثم انجد ثم آوى
إلى جبل لأظفر بالمنال

فأعرف إننى صبّ عنيد عشقت وأن عشقتك كالخيال (١)

إنه يسترشد قوله تعالى على لسان ابن سيدنا نوح: (قَالَ سَأُوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (سورة هود الآية ٤٣)).

إنه يوظف الاقتباس القرآني هنا توظيفاً مماثلاً ، فينقل لنا من خلاله مدى شوقه لمدينته ، فالقول (آوى إلى جبل) ، قاله ابن سيدنا نوح - عليه السلام - ، الذي ظن أنه سينجو من الطوفان ، إذا لجأ إلى الجبل .

وكان الشاعر أراد أن ينقل إلينا وبشكل غير مباشر، شكه في أن يجد الراحة لنفسه المثقلة بهموم الإنسانية ، حتى في أحب الأماكن إلى قلبه ؛ ، وقد نجح الشاعر من خلال هذا الاقتباس الهادف أن يصور المبالغة الشديدة في وصف حبه لمدينته ، وكان شوقه إليها لا يوازيه إلا رغبة الغريق في النجاة.

وعندما يعبر الشاعر عن حيرة نفسه بين الحزن والرجاء ، يعبر عن ذلك أصدق تعبير من خلال استرفاد التعبير القرآني (صبر جميل) فيقول فى قصيدته " الهوى المستحيل" :

عشقت الربيع بقلب صبرى وإذ بى أوؤب بقلب عليل

وإذ بى أعلل نفسي بأنى سأزرع دربي بصبر جميل(٢)

إنه يثير فى ذهن المتلقى الآية الكريمة بكل ما تستدعيه من معانٍ ؛ قال تعالى :

(١) د. يوسف حسن نوفل، كما تهاجر الطيور، الأعمال الكاملة، مصدر سابق، ص١٥٣.
(٢) د. يوسف نوفل، شلالات الضوء، الأعمال الكاملة، مصدر سابق، ص٣٦٩.

(وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبِرْ جَمِيلًا وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ) (سورة يوسف الآية ١٨).

إن ما يثيره هذا الاقتباس ليعبر أبداع تعبير عن إحساس الشاعر الممزق بين اليأس والرجاء ؛ فدائمًا يبني الآمال ثم تقابله الحياة بما يخيب آماله ، ومع كل احباطات واقع الحياة يبقى الصبر الذي أمرنا به خالقنا وبشرنا أن فيه الخير والفلاح لنا ، وقد نجح شاعرنا في توصيل تلك المعاني ، وأكثر من خلال هذا الاقتباس الجميل فقول شاعرنا : (أعلل نفسي بصبر جميل) يثير في أذهاننا موقف سيدنا يعقوب عليه السلام ، الذي صبر على المكر والبلاء فكان نصر الله وفرجه بأن رد له ابنه وبصره .

ثانياً اقتباس المعاني القرآنية :

لا يقتصر التناسل الديني عند الشاعر يوسف نوفل على اقتباس اللفظ القرآني فحسب ، وإنما يتعداه إلى استرفاد المعاني القرآنية؛ فاللغة القرآنية مسيطرة على فكر الشاعر لفظاً ومعنى ، وقد ظهر حرص الشاعر على استرفاد المعاني القرآنية الراقية ، في مقابل ما يظهر في الحياة المعاصرة ، من سيادة المعاني اللا إنسانية والنفعية ، وعدم احترام حرمة النفس الإنسانية؛ يقول الشاعر معبراً عن تلك المعاني في قصيدته " القتل الآن" :

كان القتل قصاصاً

كان القتل شهادة

كان القتل عبادة (١)

ففي كل سطر من سطور الشاعر السابقة إشارة لآية أو أكثر من القرآن الكريم ؛ ففي السطر الأول يسترفد الشاعر قوله تعالى:
(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (سورة البقرة الآية ١٧٩)

وفي السطر الثاني إشارة لمنزلة الشهيد يوم القيامة كما جاء في قوله تعالى:
(ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون)
(سورة ال عمران الآية ١٦٩)

(١) د. يوسف نوفل، شلالات الضوء، الأعمال الكاملة، مصدر سابق، ص ٣٠٠.

وفى السطر الثالث إشارة لمنزلة المجاهدين في سبيل الله كما جاء في قوله تعالى:

(فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا) (سورة النساء الآية ٧٤)

ويبرز الشاعر من خلال التناص المعاني السامية التي أتيح من أجلها القتل؛ مثل القصاص والجهاد في سبيل نصرته الحق بالمقارنة بما آل إليه واقع العالم الآن ؛ يقول في نفس القصيدة :

أما الآن

الأمر سواء

أن تقتل أو تقتل سيان

فمهم أن يقتل إنسان (١)

فالشاعر ينقل لنا حزنه العميق ، لما آلت إليه الإنسانية من إسراف في القتل ، لأسباب لا ترقى لأن تكون مبرراً لاستباحة الدماء البشرية ، مثل القتل لمجرد الصراع على الثروة ؛ يقول في القصيدة نفسها :

فالقتل أمان

حتى لا يطمع مقتول فيما هو في أيدي القاتل

حتى لا يطمح مقتول لأمر من شأن القاتل

القتل القتل القتل

ديدن إنسان العصر (٢)

ولا شك ، أن التناص قد أعان الشاعر في إبراز تجربته ، وتوضيح مقصوده بوضوح وإيجاز ، من خلال المفارقة العميقة ، التي توضح التناقض الصارخ بين ما يتمناه الشاعر ، ويأمل أن يسود في الحياة الإنسانية ، وبين ما هو موجود في واقع الحياة.

إن هذا التوظيف يجعلنا نتحد مع الشاعر؛ لنشاركه آلامه ، وتتمزق أنفسنا ألماً لما آل إليه الإنسان المعاصر من إفراط في القتل ، حتى كاد أن يصبح من المشاهد اليومية المألوفة ، المعروضة في وسائل الإعلام المختلفة.

(١) المصدر السابق، ص ٣٠١.
(٢) د. يوسف نوفل، شلالات الضوء، الأعمال الكاملة، مصدر سابق، ص ٣٠١.

ثالثا الاقتباس من القصص القرآني :

يأخذ الاقتباس من القصص القرآني عند الشاعر - في معظمه - شكل الرمز، الذي يتخذ منه الشاعر منطلقاً لمضامينه الشعرية ، فقد جاء إدراكاً منه لأهمية القصص القرآني ، وما له من قدرة خاصة على استمالة المتلقي ، بحيث (يمنح القارئ وقفة تأملية ، بين دالتين مختلفتين ، تتحدان معاً في نص واحد جديد ، مثيرة دلالات أخرى جديدة ، تحمل أكثر من بصمة وأكثر من بعد) (١)

"إن بناء القصيدة على قصة أو حكاية تاريخية ، يتيح للشاعر إمكان صياغة المادة التاريخية شعراً ؛ لأن تلك المادة تقدم له مختلف العناصر السردية، التي تكوّن هيكلًا قصصياً أو سردياً متكاملًا ، وحين يقوم الشاعر بصياغة القصة صياغة شعرية ، مبنية على تقديم عناصرها الأساسية أو معظمها، فإنه يقدم نمطا من المحاكاة التامة ، مما يهيئ لقصيدته التأثير في المتلقي عبر إثارة تعجبية ، بما يؤكد كون المحاكاة التامة القائمة على القصة واحدة من لطائف الكلام ، التي يقلُّ الاهتداء لمثلها" (٢)

ومن أوضح صور التناص مع القصص القرآني عند الشاعر قصيدته "قالت نملة" ، التي قال عنها الدكتور محمد عبد المطلب : (هذه القصيدة غارقة في التناص إلى أذنيها) (٣) وقد كان محقاً في قوله ؛ ففي تلك القصيدة ، ينقل لنا الشاعر من خلال التناص شعوره الحاد بالألم ، لما يعانیه العالم اليوم من استخدام للقوة المفرطة الموجهة غالباً للضعفاء بلا أية رحمة ، يقول في قصيدته " قالت نملة" :

"قالت نملة

من أقصى المغرب لقبيلتها

في أقصى ((المشرق)) :

جند سليمان أتوا ؟ أم تلك جنود الجن عتاة وشياطين ؟

قالت نملة

(١) إيمان الشنيني، التناص (النشأة والمفهوم)، مجلة أفق الثقافية، أكتوبر، ٢٠٠٣م.
(٢) د. سامي سليمان، الشعر والسرد تأصيل نظري ومداخل تأويلية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط١، ٢٠١٢م، ص ١٢٤، ١٢٥.
(٣) د محمد عبد المطلب، الأستاذ الدكتور يوسف نوفل دراسات وشهادات، مرجع سابق، ص ١٤١.

يا أيتها الريح العابرة شمالا وجنوبا من سبا او من سيناء
من بابل أو من آشور
من مدين أو من أور
سخرت مرارا لنبي ،سخر من قبل شياطين وشياطين
وهو الراعي قطعان أبيه
يا أيتها الريح " (١)

إن الشاعر يستوحي قصة النملة مع جنود سليمان في القرآن الكريم ،
مسقطاً ضآلتها، وضعفها على ضآلة وضعف العالم العربي في عصرنا، وقد
عكس لنا الشاعر شعوره الحاد بالحزن من خلال الفزع ، والجزع ، المائل في
سؤال النملة لقبيلتها : (جند سليمان أتوا أم تلك جنود الجن عتاة وشياطين ؟) .
تلك مقارنه بين رحمة سليمان بالنملة رغم قوته، و ما يحدث الآن من
جرائم ضد الإنسانية ، بلا أية رحمة بالضعفاء ، ضحايا الحروب والصراعات ،
من النساء ، والأطفال ، والمسنين ، ويقدم الدليل على أن القوة ليست مبرراً
للظلم ؛ فالنبي سليمان أوتى من القوة ما لم يوت أحد من العالمين ، حتى إن
الريح كانت تاتمر بأمره ؛ وهناك إشارة أخرى يقدمها الشاعر من خلال وصف
الريح (عاصفة خاطفة آزفة) ؛ إن في ذلك تلميحاً لما أصاب الأمة العربية،
والمجتمع الإسلامي بأثره من ضعف وتخاذل، وهذا ما يؤكد نداء الشاعر
متفجعا في القصيدة نفسها:

يا داوود ٠٠ يا داوود

صكت أسماعي نايات ومزامير ليست كالأسفار وليست كالنايات

وليست كمزامير

أين مساكن رهطي أين ملاذي ؟

والأفق الصاخب من (أقصى) المغرب حتى (أقصى) المشرق بفلسطين

حمم وبراكين

جن وشياطين (٢)

(١) د. يوسف نوفل، مرايا المتوسط، الأعمال الكاملة، مصدر سابق، ص ٢٣٦ .
(٢) د. يوسف نوفل، مرايا المتوسط، الأعمال الكاملة، مصدر سابق، ص ٢٣٧ .

إن نداء الشاعر المكرر (يا داوود يا داوود) ، ليس نداء من ينتظر
المجيب ، وإنما نداء التحسر والتفجع ؛ فداوود في هذا السياق يمثل رمزاً للقوة
العادلة الغائبة في عالم الشاعر "

قال تعالى : (فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ
وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ
ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ)(سورة البقرة الآية ٢٥١).

أي لولا إقامة الملوك حكماً على الناس لأكل قوى الناس ضعيفهم "(١).
ولا شك ، أن هذا التناص الذي يستدعي القصة القرآنية قد أسهم إسهاماً
كبيراً في توصيل مراد الشاعر ، وعندما يقول:(صكت أسماعي نايات ومزامير ،
ليست كالأسفار ، وليست كالنايات وليست كمزامير) ، يشير إشارة أخرى للقوة
العادلة المفقودة ، قوة التأثير ؛ فالشاعر يشكو تلميحاً على لسان النملة ، من
الصمم الناتج عن ضجيج الأصوات ، ما بين خطب ، وأناشيد ، وأغانٍ ، وعود
ليس لها أي وجود على أرض الواقع ، ويتمنى لو أن تلك الأصوات لها شيء
من قوة سيدنا داوود عليه السلام الذي "وهبه الله من الصوت العظيم ما لم يعطه
أحدًا ، بحيث إنه كان إذا ترنم بقراءة كتابه يقف الطير في الهواء ، ويرجع
بترجيعة وتسبح معه كلما سبح بكرة وعشياً صلوات الله وسلامه عليه"(٢).

ويقول في موضع آخر من القصيدة نفسها : :

قالت نملة :

لقبيلتها :

يا رهطي نادوا ((بليقيس)) أو اختبئوا عند نجاشي الحبشة

واجتنبوا كسرى(٣)

انه نداء آخر يتحسر على غياب القوة الحكيمة التي رمز لها ببليقيس ملكة
سبأ وقصتها مع سيدنا سليمان عليه السلام ، كما جاء في القرآن الكريم أنها
طلبت المشورة من قومها عندما جاءها خطاب سيدنا سليمان ، ثم أنها أثرت
السلام على الرغم من إن قومها أبدوا استعدادهم لمناصرتها إن اختارت الحرب

(٢) د. يوسف نوفل، مرايا المتوسط، الأعمال الكاملة، مصدر سابق، ص ٢٣٨.
(٣) ناصر جمال شبانة، التناص القرآني في الشعر العماني الحديث، مجلة جامعة النجاح
للأبحاث والعلوم الإنسانية، المجلد ٢١، ع ٤، ٢٠٠٧م، ص ١٠٨٦.

، وأكدوا لها أنهم قادرون على ذلك ، فإن صوت الحكمة غلب عليها ، وجعلها لا تستكبر وتستمتع لصوت الحق ، وانتهى أمرها كما جاء في القرآن الكريم أن أسلمت واتبعتها قومها .

إن هذا التناصر بكل ما يتضمنه من معانٍ ، يحمل آمنيات الشاعر الدفينة في أن يرى هذا النموذج من الحكام في عصره ، ذلك التمني الذي لا يخلو من الحسرة ، لشعوره باستحالة أن تتحقق الأماني ، وفي نفس السياق نرى (كسرى) رمز القوة الظالمة وذلك في قوله " واجتنبوا كسرى".

ويقول في القصيدة نفسها ، مخاطباً أصحاب القضايا العادلة في الوطن العربي :
غوصوا- ما استطعتم- في جب الأرض ((كيوسف)) من بطش الطاغين
غوصوا- ما استطعتم- في جوف البحر ((كذي النون)) (١)

وأظن أن الشاعر هنا يفرق - من خلال التناصر - بين موقف المواطن العربي الذي اختار المقاومة والدفاع عن أرضه ، فكان نصيبه السجن والاعتقال ، والموقف الآخر موقف اليأس والاستسلام ، يقول متحسراً في القصيدة نفسها :

يا ذا النون

من لي - في النور - بظلمات مثل الظلمات (٢)

وفي هذا التناصر تعبير عن حيرة المواطن العربي ، الذي يحيا في ظل الاحتلال في ظلام ليس له نهاية ، ويتمنى أن تتبدد تلك الظلمات وتنتهي معاناته كما انتهت معاناة سيدنا يونس، ويقول في موضع لاحق من القصيدة نفسها :

يا ذا النون

أو يتبخر كل منكم في الجو رذاذا ، أو يتحول طيرا مفزوعا مذبوحا

هيض جناحا

كونوا أثرا ، كونوا نقشا ، كونوا حجرا، نصبا

كونوا تاريخا أرقاما وعناوين أشلاء أو قرابين

لتضاف قبيلتكم لقبائل : مدين او عاد وثمود

صسم وجد يس

(١) د. يوسف نوفل، مرايا المتوسط، الأعمال الكاملة، مصدر سابق، ص ٢٣٨.
(٢) د. يوسف نوفل، مرايا المتوسط، الأعمال الكاملة، مصدر سابق، ص ٢٣٨.

وقبائل كل المنسيين
الغرقى في سيل العرم
وقبائل كل المنهزمين المسحوقين
في قاموس المنسيين
بمروج الذهب أو الكامل (١)

وعندما نحاول استقراء هذا الاقتباس ندرك الحقيقة التي أراد الشاعر أن يعبر عنها ؛ فذو النون المنادى في هذا المقطع ليس نبي الله ، وإنما هو مجرد رمز للمواطن العربي المقهور ، الذي ضعفت إرادته ، فرضي لأتمته هذا المصير ؛ إنه نقد لاذع للحضارة العربية ، التي تحولت إلى مجرد تاريخ ليس له وجود على أرض الواقع ، فينادى الإنسان العربي مستنكراً أن يرضى أن تختزل حضارته ، لتصبح مجرد ماضٍ مهما كانت عظمة هذا الماضي .

وقد نجح الشاعر في توظيف التناسل ، بحيث جعلنا نعيش معه داخل تجربته، فلم يعد يخفى علينا صوت الشاعر ، الذي يغار خوفاً على حضارة أمته وحاضرها أيضاً ؛ ذلك الصوت الذي يعلو بالترهيب ثم بالتحذير ، ثم يهدأ بالترغيب ، مما يعكس الحس الوطني المتنامي عند الشاعر ، حتى إننا نلمس في شعره أن قضايا العروبة وهمومها شغله الشاغل ، ومن أهم ما شغل الشاعر قضية غياب العدل في عالم اليوم ؛ ففي قصيدة "مرج البحرين" إشارة أخرى للقوة العادلة التي ينشدها الشاعر ويتمنى أن تعم العالم كله ، يقول :

" هذا ياقوت الحموي يقص علينا أخبار الفرما وحديثاً عن

ذي القرنين ، والنخل وألوان الرطب وعيون الماء وأخبار

الفتح الإسلامي ، وبوابات فيها رائحة من يوسف أو يعقوب" (٢)

"فدو القرنين" يمثل رمزاً للقوة العادلة ، التي تنتصر للحق ، كما جاء في سورة الكهف ، كذلك ينقلنا التناسل هنا، لنشارك الشاعر إحساس الأمل والتفاؤل ، ولا نستبعد أن يكون هذا السياق يمثل توقعاً لمستقبل أفضل لأمتنا الإسلامية ، وانتصاراً للحق على الباطل؛ فعندما يقول شاعرنا : (وبوابات فيها رائحة من يوسف أو يعقوب) ، إنما يستدعي في أذهاننا قصة اجتماع سيدنا

(١) د. يوسف نوفل، مرايا المتوسط، الأعمال الكاملة، مصدر سابق، ص ٢٣٩، ٢٣٨.

(٢) د. يوسف نوفل، البحر أنثاء البحيرة، الأعمال الكاملة، مصدر سابق، ص ١٢٩.

يوسف مع إخوته في النهاية ، بعد كل ما لقي من المعاناة، كما يلفت انتباهنا إلى أن الصبر والثقة بالله أقوى سلاح في مواجهة الظلم كما فعل سيدنا يعقوب عليه السلام .

ولا شك أن هذا التناصر ، يرمز لغيره الشاعر على حضارة أمته ، فيقف معاتباً الإنسان العربي ، الذي رضي لنفسه هذا المصير ، ليصبح ماضياً بلا حاضر.

وفي ذلك بارقة أمل يرسمها الشاعر في تجربته الشعرية ؛ وكأنه يريد أن يقول : إن أمتنا العربية على الرغم الضعف ، الذي غلب على أهلها ، في مقابل قوة أعدائها وكثرتهم ، فإن عدالة قضاياها ، وقوة إيمان أهلها ، لا بد أن تنتصر في النهاية .

وكان الشاعر بحسه الوطني ، يخشى على أمته من مغبة الوقوع في براثن اليأس ، فيقدم لهم - تلميحا لا تصريحاً - ما يقوى عزيمتهم ، ويذكرهم أن العبرة بالنهبات ، فلا ضير أن نتعثر وننكفئ مادام بإمكاننا أن ننهض فكل جواد كبوة ، ولا يقلل ذلك من قدرنا .

فيوسف عليه السلام نبي وابن نبي ، ومع ذلك لقي من الابتلاءات ما لقي ، ونصره الله بفضلته ، وكان شاعرنا يريد أن يقول لأبناء أمته : اتركوا اليأس جانباً مهما كان الواقع قاسياً ؛ لأن اليأس سيجعله أكثر سواداً ، وإنما الأجدى أن نصبر ونعمل على تغيير هذا الواقع مع الثقة في نصر الله ، حتى نستطيع الوقوف أمام كل المحاولات المعادية لحضارتنا العربية الإسلامية ، وتحاول بكل وسيلة أن تقضى عليها ، وتلقى بها في غيابات النسيان ، وتنطمس هويتنا ، لنصبح مجرد أتباع، ومقلدين لغيرنا.

ومما يؤيد قرب هذا الرأي من الصحة ما ذكره الشاعر نفسه، فعندما ذكر ذا القرنين أراد أن يشير إلى القوة العادلة ، التي انتصرت بحول الله وقوته ، كما أن ذكر الشاعر للفتوحات الإسلامية إشارة أخرى في الاتجاه نفسه؛ فقصص الفتوحات الإسلامية جميعها ، تؤكد أن المسلمين الأوائل لم ينتصروا بقوتهم المادية فقط، وإنما انتصروا على أقوى الحضارات بقوة عقيدتهم.

وفي إطار من الرمزية الخالصة يعبر عن فقدان القدس ؛ قررة عين كل مسلم فيقول في قصيدته " قابيل وهابيل" :

كان القلب حريريا

تجرحه الهمسة واللمسة

تنقش فيه الريح

خطوتها

ثم يقول

وإذا طائر شؤم اسود

يهبط كالموت

يسرق بهجة قلبين ٠٠٠ يمد لسانا كالثعبان ٠٠ يفرق بين

القلبين ٠٠ ويغوى الأنتى : عزة ليلي لبنى عن

فارسها ٠٠٠ المجنون بها ٠٠٠ يغوى ويفرق بين القلبين كالموت

يعيد حكاية قابيل وهابيل" (١)

ومن أجمل التوظيفات الرمزية للتناص عند الشاعر ، هذا التوظيف لقصة

قابيل وهابيل ، في سياق الحديث عن تجربة الشاعر عن جريمة احتلال القدس

إن " هابيل رمز الضحية الإنسانية ، حين يسقط بيد أخيه الشرير ، الذي

سنّ قانون القتل ، مما يتيح للشاعر أن يقول دون أن يصرح ، ومما يسترعى

النظر هو أن مفردة قابيل هي التي استعدت هذا الفضاء الدموي، فهي مفتاح

الإشارة التناصية.

إن ما يلح القارئ في مثل هذه البناءات ، هو أجمل مفتاحية تستجر

فضاءً قرآنيًا بأكمله ولا يكتفي القارئ بإزائها الربط بين النصين بقدر ما يشعل

حرائق المخيلة ليغزو قريباً من معاينة أحداث القصة القرآنية لما يخدم رؤية

النص الجديد" (٢)

وقد وظف الشاعر التناص توظيفاً رمزياً رائعاً ، في بناء تجربته

الشعرية ؛ فالأنتى هي مدينة القدس، وقابيل رمز للمغصب ، الذي احتل الأرض

وقتل وشرّد أهلها ، كما رمز للإنسان العربي ، الذي يتمسك بحقه في تراب

وطنه إلى آخر قطرة من دمه بهابيل.

وفى سياق التعبير عن تجربة السعادة الغامرة يأتي التناص القصصي

ليصف مدى فرحة الشاعر الغامرة بميلاد الحفيد (يوسف) بصدق وإيجاز بعيداً

عن المباشرة والتعقيد ، يقول في قصيدته "يوسف بالحب جاء " :

" بشروا يعقوب واستبقوا إليه

وامنحوه ناظريه

بشروه ٠٠٠ بشروه

(١) يوسف نوفل، الأعمال الكاملة، البحر أنثاء البحيرة، مصدر سابق، ص ١٦٨ ، ١٦٩.

(٢) ناصر جمال شبانة، التناص القرآني في الشعر الحديث، مرجع سابق، ص ١٠٨٩.

يوسف بالحب جاء" (١)

وكأنه يستخدم هذا التناص ، في تصوير مدى فرحته بوصول الحفيد الأول "يوسف"، وكان الشاعر لم يجد وصفاً معبراً عن فرحته بقدم حفيده إلا فرحة يوسف عليه السلام ، التي جاءت بعد حزن عميق، وصبر طويل ، فكان هذا التناص أصدق تعبير عن إحساس الشاعر .

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- ١- أحمد الزغبى، التناص نظرياً وتطبيقياً، عمون للنشر، الأردن ، ٢٠٠٠م.
- ٢- أحمد مجاهد، مغامرات القصيدة المعاصرة، ط١، ٢٠٠١م
- ٣- إيمان الشنيني، التناص (النشأة والمفهوم)، مجلة أفق الثقافية، أكتوبر، ٢٠٠٣م.
- ٤- خليل موسى ، قراءة في الشعر العربي الحديث والمعاصر ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ٢٠٠٠م
- ٥- رمضان الصباغ، في نقد الشعر العربي المعاصر، دراسة جمالية، دار الوفاء، الإسكندرية، ط١، ١٩٩٨م
- ٦- سامي سليمان، الشعر والسرد تأصيل نظري ومداخل تأويلية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط١، ٢٠١٢م
- ٧- سعاد العبد الوهاب العبد الرحمن، مستويات المرجعية وتجلياتها التراثية – حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية-رسالة ١٩٨، رسالة ٢٣، ٢٠٠٢م
- ٨- عادل الفريجات، تأويل النص الشعري بين التراث والمعاصرة، مجلة الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد ٣٩٨، ٢٠٠٤م
- ٩- عباس طالب زادة ، التناص القرآني في شعر يحيى السماوي، جريدة نور العراق مجلد ٢١ .
- ١٠- عبد الباسط الذبوع، المتوقع واللامتوقع في شعر محمود درويش، دراسة – مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، ج ١٨، ٣٧٤، جمادى الثاني ١٤٣٧هـ.
- ١١- عبد السلام عبد الخالق الزبيدي ، النص الغائب في القصيدة العربية المعاصرة ، دار غيداء للنشر ، ط١ ١٤٣٣هـ ٢٠١٢م

(١) د. يوسف نوفل، مرايا المتوسط، الأعمال الكاملة، مصدر سابق، ص ٢٦٩.

- ١٢- على عشري زايد، استدعاء الشخصيات التراثية فى الشعر العربي، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١، ١٧٤١٧هـ-١٩٩٧م.
- ١٣- فاروق عبد الحكيم درباله، التناسل الواعى شكوله وإشكالياته، مجلة فصول، عدد ٤٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٤م
- ١٤- محمد تحريشى، النقد والإعجاز القرآنى، دراسة منشورات اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠٤م،
- ١٥- محمد عبد المطلب، الأستاذ الدكتور يوسف نوفل دراسات وشهادات، قصر ثقافة حلوان، ٢٠٠٩م
- ١٦- محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، لونجمان، ط١، ١٩٩٤م.
- ١٧- محمد عزام، النص الغائب (تجليات التناسل فى الشعر العربي)، دراسة منشورات اتحاد الكتاب العرب .
- ١٨- محمد مفتاح إستراتيجية التناسل وتحليل الخطاب الشعري، الدار البيضاء، ط٣، ١٩٩٢م، ص
- ١٩- معجم العين، الخليل بن أحمد الفراهيدى، تحقيق مهدى المخزومى وآخرون، مكتبة الهلال، ج٧
- ٢٠- المعجم الوسيط، مصطفى إبراهيم وآخرون، مجمع اللغة العربية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت).
- ٢١- ناصر جمال شبانة، التناسل القرآنى فى الشعر العماني الحديث، مجلة جامعة النجاح للأبحاث والعلوم الانسانية، المجلد ٢١، ٢٠٠٧م